التصوف فى الأدب

عمر الخيام – أمن المتصوفة – ترجمة رباعياته

نريد « بالتصوف » ما يطلقون عليه فى بلاد الغرب كلمة « مستيسزم » وهى كلمة من أشق الأمور أن يعالج المرء تعريفها على وجه الدقة ، إذ كانت تدل على حالة من حالات الفكر ، أو الاحساس ، تبدو مقرونة بمحاولة العقل الإنسانى أن يتغلغل إلى حقائق الأشياء وأن يستجلى صفاتها الربانية ، أو الاستمتاع بنعمة الوصول إلى الذات العلية والاتصال بها والتسرب فيها ، ومن هنا ظهر التصوف فى الفلسفة والأدب ، وفى الدين كذلك .

وهذه النزعة عريقة فى العقل الإنسانى ، وليست بالشاذة ولا النادرة . ولكن الناس ليسوا سواء فى قوة الذهن وقدرته على توضيح ما يعرض له وجلائه ، ولا فى صلابة الإرادة التى تعين على مواصلة الالتفات . والمرء إذا لم يرزق القوة والإرادة استراح إلى الأحلام ، واستسهل أن يطلق لخياله العنان ، إذ كان هذا أقل كلفة وأيسر مؤونة ، وكان لا يتقاضى المرء من الجهد ما تتقاضاه الملاحظة والوزن ، على أن المرء لا يكاد يكون له خيار فى ذلك ، فإذا عدم الإرادة التى تؤتيه القدرة على الالتفات استهدف للأخطاء ، وغاص فى لجج من الخرافات ، واعتل رأيه فى الصلات الكائنة بين الظواهر المجتلاة ، وفسد حكمه على الوجود وصفات الأشياء وعلاقتها ، ولم يستطع وعيه أن يأخذ إلا صورة مشوهة غامضة للعالم الخارجى ، وضعف تمييزه ، واختلط الحابل بالنابل فى خواطر ذهنه – إذا صح هذا

التعبير – وماج بالمختلف والمؤتلف منها ، وبالواضح والمستبهم ، وعاثت الخواطر – بحكم اتصالها – بلا كابح ، وراحت تظهر أو تختفى من تلقاء نفسها ومن غير أن يكون للإرادة عمل ما فى تقويتها أو نفيها ، واستدعى احتفاظُ الوعى بجمهرتها فى وقت معًا أن تتكون من خليطها فكرةٌ مضطربة غير صادقة فى تصوير العلاقات بين الظواهر . وقد ضرب نورداو فى هذا الصدد مثلاً لذهن الرجل الضعيف قال « كل من حاول فى ليلة مظلمة أن يستجلى ظاهرة بعيدة يستطيع أن يحضر لنفسه الصورة التى يرسمها عالم الفكر لذهن الرجل الضعيف . انظر ثم ! كتلة مظلمة ! أى شىء هى ؟ شجرة ؟ كوم من الدريس ؟ لص ؟ حيوان مفترس ؟ أينبغى أن أفر ؟ أم يجب أن أحمل عليه ؟ ويعود العجز عن استبانة الشىء – الذى يحرزه ولا يراه – مدعاة لاشاعة الخوف والقلق فى نفسه . وهذه هى الحالة التى يكون عليها عقل الرجل الضعيف تلقاء ما يأخذه وعيه ، فيروح يعتقد أنه يرى مائة شىء فى وقت معًا ، ويصل ما بين الصور التى يخيل له أنه يتبينها وبين الخاطر الذى كان مثارها ، على أنه يحس مع ذلك أن هذه العلاقة لا مفهومة ولا معللة ، ولكنه مع هذا يؤلف من أشتات ما فى ذهنه ، فكرة تناقض كل تجربة ولكنه مضطر أن ينزلها من الصواب منزلة غيرها من آرائه وخواطره إذ كانت كلها قد نشأت على هذا النحو ... وهذه الحالة الذهنية التى يحاول المرء معها أن يرى ، ويحسب أنه يرى وهو لا يرى . ويضطر أن يؤلف فكرة من خواطر تضلله وتسخر من وعيه ، وتخيل له أنه يدرك علاقات مستسرة بين الظواهر الواضحة والظلال الغامضة الملتائة – هذه هى الحالة العقلية التى تسمى التصوف » .

فهى حالة مرجعها إلى ضعف الإرادة ضعفًا تمتنع معه القدرة على « الالتفات » أى مواصلة الملاحظة والتمييز .. ولكن هناك نوعًا آخر من

التصوف لم يفت نورداو أن يلتفت إليه ، وقد عزاه بحق إلى الاضطراب فى حساسية الذهن والجهاز العصبى ، وهو اضطراب يُنتج التصوف العملى ويفضى إلى الهذيان والغيبوبة حين يبلغ من عنف حركة الجزء المهتاج من الذهن أن يتعطل عمل سائره . ويعود المرء وهو لا يحس ما حوله لاستغراق خاطر واحد أو طائفة من الخواطر للوعى كله وتمتزج الغبطة والألم . ولا شأن لنا بهذا الضرب من التصوف .

وقد لا نخطئ كثيرًا إذا قلنا إن التصوف فى بلاد الشرق متفرع من فلسفاتها السائدة ، وإنه عبارة عن الاحساس الدينى فى حيثما ظهر ، ولكنه فى الهند غيره فى فارس مثلاً . وذلك أن البرهمية التى تقول بتأليه الكون ووحدته ، والبوذية التى تذهب إلى العدمية — كلاهما ينكر حقيقة العالم الظاهر ويدعو إلى التسرب فى الغاية العليا ، وكلاهما يعصف بالاحساس بقيمة الشخصية الإنسانية ، وقد علل الأستاذ أندرو برنجل باتيسون — شيوع التصوف فى الهند بطبيعة الاقليم وما يغرى به المناخ من التسليم والفتور ، وبأن فرط الخصب فى حياتى النبات والحيوان هناك يبلد الاحساس بقيمة الحياة . أما الصوفية الفارسية فأقل حدة ، وهى ألطف وأرق ، والصيغة الأدبية فيها أعم . والمطلع على تاريخ الأدب الفارسى يجده بعد القرن التاسع مشبعًا بروح البانثيزم (وحدة الكون وتأليهه) ولكن الادراك الصوفى لوحدة الأشياء وألوهيتها يزيد ويضاعف التذاذ الجمال الطبيعى والإنسانى ولا يفتره أو يصرف عنه . وهذا ملحوظ فى شعر حافظ والسعدى وغيرهما ممن كثر فى شعرهم التغنى بالخمر والغزل تغنيًا خرجه المفسرون تخريجًا آخر وأولوه بغير المستفاد من لفظه فزعموا ما فيه من ذكر لذاذات الحب رمزًا لغبطة الاتصال بالذات العلية ، وادعوا أن الخمارة اسم مستعار للمعبد وأن نشوة الخمر هى ذهول الحس . ولا شك أن لهؤلاء الشعراء

قصائد بعث عليها الاحساس الدينى فى أول الأمر ، وهذه تغلب عليها البانثيزم ، وتحس فيها حرارة الرغبة فى خلاص الروح واتصاله بالله . ولعل هذه الحالة التى تعتريهم أحيانًا وتغريبهم بعدّ الطبيعة والجمال ومتع الأرض عبثًا وباطلاً – رد فعل للاغراق فى التماس اللذاذات وإفراط فى إرضاء الجسم ، أو لعلها الجانب الآخر للصورة .

ومن شعراء الفرس الذين ذاع صيتهم وسار ذكرهم فى الشرق والغرب عمر الخيام . وقد حاول بعض النقاد أن يزج به فى زمرة المتصوفة من شعراء الفرس وأن ينفى عنه ما يدل عليه ظاهر ألفاظه ، وأن يخرج كلامه على نحو ما أسلفنا ، وأن يدفع عنه تهمة الابيقورية جهلاً كما سترى . ولكن الواقع ، كما قال مترجمه إلى الإنجليزية فتزجرالد ، إن عمرًا لم يكن أبغض إلى أحد منه إلى متصوفة عصره الذين كان يسخر منهم ويركبهم بالدعابة والتهكم « وإنه لما عجز أن يهتدى إلى شىء سوى القدر أو دنيا غير هذه – بالغًا ما بلغ خطؤه فى ذلك – قنع بحظه المقسوم له ، وآثر أن يرفه عن نفسه من طريق الحواس على أن يرهق نفسه باستجلاء الغوامض » .

على أنه كانت له موهبة تنأى به عن التصوف ، ذلك أنه كان رياضيا بارعًا . ومما يذكر له فى هذا الباب تنقيحه التقويم السنوى تنقيحًا أظهر فيه من الحذق والأستاذية ما أطلق لسان جيبون المؤرخ الانجليزى بالثناء عليه . وله كذلك طائفة من الجداول الفلكية ومؤلف فى علم الجبر بالعربية . والذهن الرياضى مجاله وعمله ضبط الحدود والحصر ، وتعليق النتائج بأسبابها ، والمعلول بعلته ، وهو عمل يتطلب من الدقة والعناية والترتيب والتبويب ما لا يطيقه أو يقوى عليه ذهن المتصوف . ومن العجيب أن فتزجرالد لم يفطن إلى دلالة هذا ولا خطر له أن يسوق هذه الحجة فيما ساقه لتبرئة الخيام من التصوف .

وأمامى – وأنا أكتب هذه السطور – « خيامان » ، الخيام الذى صوره لنا فتزجرالد فى مائة وأربع وعشرين رباعية أفاض عليها من روحه هو ، والخيام الذى يرسمه الأستاذ أحمد حامد الصراف مترجمة من الفارسية إلى العربية نثرًا ، فى مائة وثلاث وخمسين رباعية أكثرها لا تجده فى فتزجرالد ، والشاعر أحمد رامى مترجمة عن الفارسية شعرًا ، والقليل المشترك مختلف حتى ليتردد المرء فى الجزم بأن هذه الرباعية هنا هى تلك هناك . وإذا كانت ترجمتا الأستاذ الصراف والشاعر رامى دقيقتين – ويظهر أنهما كذلك ، فما نعرف الفارسية – فيخيل إلينا أن فتزجرالد عمد إلى الرباعيات المتشابهة فصاغ منها واحدة استغنى بها عن الترديد والتكرار . مثال ذلك ، أن الخيام – فى ترجمة الأستاذ الصراف – يكرر فى عدة رباعيات الدعوة إلى قلة الاكتراث ليومين : اليوم الذى مضى ، واليوم الذى لم يأت ، فيقول مثلاً فى رباعية :

« ذهبت أيام العمر القليلة كالماء فى الوادى ، أو الريح فى البيداء ، أنا لا أغتم ليومين من الأيام ، اليوم الذى لم يأت واليوم الذى مضى » .

وفى أخرى يقول :

« لا تذكر اليوم الذى مضى ، ولا تجزع من غد لم يأت بعد – طب نفسًا ولا تنغص عيشك » .

فيجىء فتزجرالد ، ويعجن هاتين الرباعيتين بما هو شائع فى أكثر الرباعيات ، ويخرج من هذا المزيج رباعية يقول فيها[1] :

هات لى الكأس فما يجدى الفطن　　كيف يطوى تحت رجليه الزمن
قد قضى الأمس ، ولم يولد غد　　فكفانا اليوم ، فاليوم حسن

(١) قد ترصنا نحن رباعيات فتزجرالد (Fitzgerald) وراعينا فى ترجمتها الدقة بقدر ما وسعنا وأثبتنا الأصل إلى جانبها – المازنى .

AH, FILL THE CUP: WHAT BOOKS IT TO REPEAT
HOW TIME IS SLIPPING UNDERNEATH OUR FEET:
UNBORN TO-MORROW AND DEAD YESTERDAY,
WHY FRLT ABOUT THEM IF TO-DAY BE SWEET !

ويظهر أن فتزجرالد راقه قول الخيام إن أيام العمر القليلة ذهبت كالماء فى الوادى أو الريح فى البيداء ، ورأى هذا المعنى مكررًا فى بعض ما ينسب إلى الخيام - وهو كثير - فنظم فيه رباعية تحرى فيها أن يصدر عن روح الخيام ، فقال :

كم بذرنا حكمة العقل سواء | وتعهدت بكفى النماء[1]
وتأمل : ها حصادى كله : | جئت كالماء ، وأمضى كالهواء

WITH THEM THE SEED OF WISDOM DID I SOW,
AND WITH MY OWN HAND LABOUR'D IT TO GROW !
AND THIS WAS ALL THE HARVEST THAT I REAP'D
"I CAME LIKE WATER, AND LIKE WIND I GO."

ومن أمثلة تصرفه الحسن أنه نقل قول الخيام :

« سمعت هاتفًا فى السحر من حانتنا يقول : ايه يا أخا الشراب المفتون ، قم لنملأ الكأس بالخمر قبل أن يملأوا كأسنا » .

وقد نظمها رامى فى هذه الرباعية :

سمعت صوتًا هاتفًا فى السحر | نادى من الحان : غفاة البشر
هبوا، املأوا كأس الطلى قبل أن | تفعم كأس العمر كف القدر

(١) من ترجمتنا نحن ، عن فتزجرالد .

فنقحها وجعلها هكذا :

بينما أحلم ، والفجر رطيب ، طرق السمع من الحان، مهيب[1]
« كأسكم ! من قبل أن تؤذنكم كأس محياكم بمحتوم النضوب »

DREAMIND WHEN DAWN'S LEFT HAND WAS IN THE SKY,
I HEARD A VOICE WITHIN THE TAVERN CRY,
"AWAKE, MY LITTLE ONES, AND FILL THE CUP
BEFORE LIFE'S LIQUOR IN ITS CUP BE DRY."

ولا شك أن نضوب الحياة أشبه بمعنى الموت من امتلاء كأسها .

ومن أمثلة هذا التصرف المعقول المحمود أن الخيام يقول :

« نحن ألاعيب أطفال ، والفلك هو اللاعب بنا ، ذلك أمر حقيقى غير مجازى ، لقد لعبنا مدة فى ساحة الوجود ثم ذهبنا إلى صندوق العدم واحدًا بعد واحد » .

وترجمها رامى هكذا :

وإنما نحـن رخاخ القضاء ينقلنا فى اللوح أنى يشاء
وكل من يفرغ مـن دوره يلقى به فى مستقر الفنـاء

فتناولها فتزجرالد ، وزاد التشبيه وضوحًا فجعله هكذا :

هذه رقعـة شطرنج القضاء ولهـا لونان : صبح ومساء[2]
ننقل الخطو بها كيف يشاء ثم تطوينـا صناديق الفنـــاء

TIS ALL A CHEQUER-BOARD OF NIGHTS AND DAYS
WHERE DESTINY WITH MEN FOR PIECES PLAYS;

(١) من ترجمتنا نحن ، عن فتزجرالد .
(٢) من ترجمتنا نحن عن فتزجرالد .

HITHER AND THITHER MOVES, AND MATES, AND SLAYS
AND ONE BY ONE BACK IN THE CLOSET LAYS.

ولا شك أن المعنى فى رباعية فتزجرالد ، أتم وأشد بروزًا منه فى الترجمة الحرفية النثرية لرباعية الخيام ، وأوضح منه فى رباعية رامى ، والتشبيه مستوفى من جميع نواحيه ، وهو فوق ذلك أجمل وأبرع ، وإن كان عيبه أننا لا ندرى أى ثان للقضاء أمام هذه الرقعة ؟ أم ترى القضاء عنده عابث يلاعب نفسه ؟

ومن أمثلة التصرف الشديد أن للخيام هذه الرباعية :

« كأس ، وخمر ، وساق فى روضة ، خير من الجنة التى وعدتها . لا تسمع من أحد حديث الجنة والنار — من ذا ذهب إلى الجحيم ؟ ومن ذا جاء من الجنة ؟ » .

ويظهر أن هناك رباعية أخرى تشبهها فى الفارسية ، فقد وجدنا بين ما اختاره الشاعر رامى هذه الرباعية :

زجاجة الخمر ونصف الرغيف وما حوى ديـوان شعر طريف
أحب لـى إن كنت لى مؤنسا فى بلقـع مـن كـل ملك منيف

ورباعية فتزجرالد صنو رباعية رامى إلا أنها أكثر اتزانًا :

وبجسبى تحت أفنان رطـاب زق خمـر ورغيف وكتاب[1]
وتغنين ، فيرتـد اليبـــاب مثل هم ، من فراديس رغاب

HERE WITH A LOAF OF BREAD BENEATH THE BOUGH,
A FLASK OF WINE, A BOOK OF VERSE AND THOU

(١) من ترجمتنا نحن عن فتزجرالد .

BESIDE ME SINGING IN THE WILDERNESS-
AND WILDERNESS IS PARADISE ENOW .

والرغيف كنصف الرغيف في الدلالة على الكفاف ، وليس وجوده كاملاً بالترف حتى يكون تنصفه رقة حال ، وتخيل المرء أن القفر انقلب شبيهًا بما تشتهيه النفس من نعم الجنة والعيشة الراضية ، أقرب إلى طبيعة الإنسان وأشبه بروحه من أن يذهب يفضل اجتماع هذه الثلاثة على الملك المنيف والعيش الرغيد ، وقد اكتفى فتزجرالد بتصوير ما ينشده الشاعر الخيام – كما فهمه هو – في حياته ، زق خمر يسرى به عن نفسه فتخرس ألسنة الهواتف التي لا تفتأ تذكره بالحياة والموت والقضاء والقدر ، ورغيف يرمز به إلى القناعة ويدل به على أنه ليس مبطانًا همه المعدة وما تكظ به ، وديوان شعر أو كتاب في ذكره إشارة كافية إلى حياته العقلية والنفسية وإلى أن القائل – وهو شاعر – ليس مجرد حيوان ، واحتفظ فتزجرالد بالساقية ، أو المؤنسة ، ولكنه تلطف وارتقى بها ولم يذكر صفتها ، وجعلها أشبه بالحبيبة تغنيه ، والموسيقى غذاء الروح ، وهي صنو الشعر ومن معلنه ، ثم آثر الاعتدال في التعبير فقال : إذا اجتمع هذا صارت البيداء « كأنها » الفردوس المشتهى .

وهناك رباعية قوية ترجمها كل من فتزجرالد ورامي ، ولم نعثر عليها في ترجمة الأستاذ الصراف ، أما رامي فصاغها هكذا :

لن يرجع المقدار فيما حكم | وحملك الهم يزيد الألم
ولو حزنت العمر لن ينمحي | ما خطه في اللوح مر القلم

أما فتزجرالد ، فتناولها من آخرها ليزيد المعنى بروزًا وتأكيدًا وليقويه فهو ، يقول :

أبدًا يسطر ، مـا شـاء ، القلم ثم يمضى– نافذ الحكم أصم![1]
ليس يمحو نصف سـطر ورع لا ولا يغسله دمـع سـجم !

THE MOVING FINGER WRITES, AND HAVING WRIT,
MOVES ON: NOR ALL THY PIETY NOR WIT
SHALL LURE IT BANCK TO CANCEL HALF A LINE.
NOR ALL THY TEARS WASH OUT A WORD OF IT

والابتداء هكذا أروع فى تصوير القدر : فالقلم يخط فى اللوح ، فإذا خط مضى شأنه ونفذ الحكم ولم يجد فى رد القضاء لا ورع ولا بكاء !

وثم رباعيات لم نجدها فى ترجمة الصراف ورامى وإن كانت قوية وهى هذه كما نظمها فتزجرالد :

كرة تذهب فى كل اتجـاه مـا لهـا إلا الذى شاء الرماه[2]
إن من ألقـاك فى ميدانـه هو يدرى– هو يدرى – لاسواه

THE BALL NO QUESTION MAKES OF AYES AND NOES,
BUT RIGHT OR LEFT AS STRIKES THE PLAYER GOES,
AND HE THAT TOSS'D THEE DOWN INTO THE FIELD,
HE KNOWS ABOUT IT ALL - HE KNOWS - HE KNOWS !

يعنى الإنسان – لا رأى له فى حياته ولا إرادة .

ثم هذه الصرخة الخارجة من أعماق القلب :

ايه أملهنى بصحـراء البيود أتذوق سـر ينبوع الوجود !
أفل النجـم – مضى الركب إلى فجر «لاشىء» – فعجل يامجود!

(١) من ترجمتنا نحن عن فتزجرالد .
(٢) من ترجمتنا نحن عن فتزجرالد .

ONE MOMENT IN ANNIHILATION'S WASTE,
ONE MOMENT, OF THE WELL OF LIFE TO TASTE -
THE STARS ARE SETTING AND THE CARAVAN
STAR FOR THE DAWN OF NOTHING - OH, MAKE HASTE

فماذا هو هذا الخيام ؟ ما هى الصورة النفسية التى تخلص لنا من رباعياته هذه وأمثالها ؟

الخيام الذى يصوره فتزجرالد فيما اختار من رباعياته ، شاعر ، لا يرتقى إلى الطبقة الأولى ولا يقاربها ، ولكنه شاعر له نظره وروحه وإلهامه ، أما فى الترجمتين العربيتين عن الفارسية ، فهو يقصر عن ذلك ولا يرتفع إلى مستواه ، فهو مثلاً ينهض إذا انبثق الفجر ليسكر ، أو كما يقول الشاعر رامى :

شقت يد الفجر ستار الظلام فانهض وناولنى صبوح المدام
فكـم تحيينا لـه طلعة ونحـن لا نملك رد السلام

ولكن فتزجرالد يهمل هذا الصبوح ويضرب عن ذكر الخمر كراهة منه لاستقبال الشاعر جمال الفجر وهو مخمور ، وللخمر فى كل رباعية مما ترجم فتزجرالد علتها المفهومة الراجعة فى مرد أمرها إلى أسلوب تفكير الشاعر ، فهو يشرب لأن الحياة وشيكة الزوال ، وكأس العمر ككأس الشراب ما أسرع ما تنضب : ولأن المقام فى هذه الدنيا قليل ، والذاهب لا يرجع ، أو لأن الشراب يتعش النفس ويشعرها بهجة الربيع ويطرح عن العاتق ثوب الندامة الشتوى الذى يقوس الظهر ويحنى القناة ، أو لأن الخمر تزور له الحياة وتحلى مرارتها وتخفف وقعها ، وتخيل إليه نشوتها أنه متمتع بما تشتهيه نفسه وما هو محروم منه ، أو لأنها تبدو له أحياناً كالنقد ، وهو خير من نسيئة الخلد ، أو لأنها تجلو الصدر من الأسف على ما مضى

أو الخوف مما هو آت ، وتوقيه التفكير فى الغد ، وما الغد ؟قد يلحقه الغد بالأمس الذى ينطوى فيه سبعة آلاف سنة ، أو لأنه يريد أن يغتنم فرصة هذه الحياة أو ما بقى منها قبل أن يصبح ترابًا فى تراب ، فهو يضع الحياة أمام الموت فيعصر قلبه قصر الأجل ، وتهوله رقدة الموت الأبدية فيصيح :

ايه دعنى أغتنم هذا المدى قبل أن يطوى ترابى فى الثرى[1]
حيث لا خمر ولا شدو ، ولا قينة ، كلا ! وما من منتهى !

AH, MAKE THE MOST OF WHAT WE YET MAY SPEND,
BEFORE WE TOO INTO THE DUST DESCEND;
DUST INTO DUST, AND UNDER DUST, TO LIE,
SANS WINS SANS SING, SANS SINGER, AND - SANS END !

أو لأنه قنع بعبث الجدول لبحث يعد يجب أن يعنى نفسه بمعاودة هذا العبث :

خضت فى عهدى غمار الجدل وسمعت الشيخ يتلوه الولى[2]
غير إنى كنت ألفى أبدًا مخرجى – بعد عنائى – مدخلى!

MYSELF WHEN YOUNG DID EAGERLY FREQUENT
DOCTOR AND SAINT, AND HEARD GREAT ARGUMENT
ABOUT IT AND ABOUT: BUT EVER MORE
CAME OUT BY THE SAME DOOR AS IN I WENT

أو لأنه يريد أن يغرق فى الكاسات. ذكرى فضول التساؤل : من أين جىء به ؟ وإلى أين به ؟ ولأن التفكير لم يفتح له الباب الذى عالجه ولم

(١) من ترجمتنا نحن عن فتزجرالد .
(٢) من ترجمتنا نحن عن فتزجرالد .

يرفع الستر الذى حاول أن يباحه ، أو لأنه ، يئس من قدرة عقله المحدود أو فهمه الكفيف عن استكناه سر الحياة ، فهو يصيح :

صحت – حيران– بأجواز السماء « أى نبراس به يهدى القضاء[1]
صبية تعثر فى هذى الدجى ؟» فأجابتنى « بمكفوف الذكاء ؟ »

THEN TO THE ROLLING HEAV'N ITSELF I CRIED,
ASKING "WHAT LAMP HAD DESTINY TO GUIDE"
"HER LITTLE CHILDEN STUMBLING IN THE DARK ?"
AND - "A BLIND UNDERSTANDING !" HEAV'N REPLIED.

ولهذا عاد بالكأس :

عدت بالكأس ، لعلّى بفمى أستقى سر الحياة الأعظم[2]
فأسرت شفة الكأس « أرتشف! ما لميت رجعة من عدم ! »

THEN TO THIS EARTHEN BOWL DID I ADJOURN
MY LIP THE SECRET WELL OF LIFE TO LEARN:
AND LIP TO LIP IT MURMUR'D - "WHILE YOU LIVE
"DRINK ! - FOR ONCE DEAD YOU NEVER SHALL RETURN"

ولا خير بعد ذلك فى تساؤل أو تفكير ، ولماذا يطيل عناءه ويعذب نفسه بالجدل والمحاولة ؟ أليس الأولى به أن يسكر ويطرب ؟ أليس هذا خيرًا من أن يخرج بالكآبة والأسى وبلا محصول ، أو بالمر من الثمر ؟ ولهذا طلق العقل وباعد ما بينه وبين التفكير والبحث :

يا أخلاى لقد كنتم شهودى حين دار القصف فى عرسى الجديد[3]
طلق العقل عقيمًا وغدت بنت هذا الكرم زوجى وعقيدى

(١) من ترجمتنا نحن فتزجرالد .
(٢) من ترجمتنا نحن عن فتزجرالد .
(٣) من ترجمتنا نحن عن فتزجرالد .

YOU KNOW, MY FRIENDS, HOW LONG SINCE IN MY HOUSE
FOR A NEW MARRIAGE I OID MAKE KAROUSE:
DIVORCED OLD BARREN REASON FROM MY BED,
AND TOOK THE DAUGHTER OF THE VINE TO SPOUSE.

وإذا كان النبيذ الذى تشربه ، والشفة التى تلثمها يصيران إلى « اللا شيء » الذى هو نهاية كل شيء – فما عليك ما دمت حيًا إلا أن تتصور ذلك ما أنت صائر إليه – لا شيء – فلن تكون أقل من ذلك .

وإذا كان قد انتهى إلى اليأس فهو لا يرى خيرًا فى أن ترفع بصرك إلى السماء مبتهلاً ، ملتمسًا المعونة ، فإن السماء مثلك لا حول لها ولا قوة ، ولا هى تملك من أمرها إلا كما تملك أنت .

فهو يشرب للخمر – لا لأنه عربيد مستهتر ، أو بليد كثيف مغلق النفس ، بل لأنه ، عالج لغز الحياة فأعياه وأضناه ، وحرقه ، وأرقه ، وأطار صوابه ، واحتجاجه للخمر فى رباعيات فتزجرالد اعتذار على الحقيقة ، ينطوى على ادراك صحيح لقيمة هذه التعلة وأنها ليست أكثر من مسكّن يخدر الحس ويفتر الشعور ويتيم العقل ويقلب نسب الأشياء أو يضعف ما يجده المرء من وقعها .

وليس كذلك شرب الخيام للخمر فيما ترجم الصاحبان : الصراف نثرًا ، ورامى شعرًا – عن الفارسية ، فهو هنا سكير « عاقر الكأس فى مجلس الحبيب ليلاً » كما يقول صديقنا رامى فى مقدمته « فى ضوء القمر ، وسحرًا عند طلوع الفجر ، ومساء عند غروب الشمس على نغم الناى والرباب فى الربيع ، على شفا الوادى وعلى ضفاف الغدير بين الزهر المفتر والجو العبق ، فإذا ذكر حرمانه من الخمر بعد الموت طلب أن يغتسل بها ، وأن يقد نعشه من كرمها حتى إذا بلى جسمه تمنى لو تصاغ منه الدنان والأقداح ، فاذا خاف ألسنة السوء قال لا تهتم بالناقدين . ارض

نفسك قبل أن ترضى الناس . لا تظهر التقى واسخر من المتزهدين واعلم أنه ليس فى العالم إنسان كامل . وقد أحب من الخمر حتى طعمها المر ولونها الصافى ، وأحب كأسها الشفافة ودنها الملآن . وكان يجد السعادة فى مجلس الشراب بين الصاحب والنديم » .

ويخيل إليك وأنت تقرأ رباعياته المترجمة إلى العربية عن الفارسية كأن الخيام « كأولاد البلد » أبناء الجيل الماضى فى مصر ، ممن كان همهم أن يحيوا الليل بالشراب والطرب والأنس ، فاذا تنفس الصبح عادوا بمخادعهم وأسدلوا الأستار وحجبوا الضوء وألقوا رؤوسهم على الوسائد وناموا . ولا تعدم من هؤلاء أيضًا فلسفة ، فقد تسمع منهم قولهم ان العمر قصير ، وان المنايا راصدة ، وان العصفور فى اليد خير من ألف عصفور على الشجرة وبعد رأسى لا كانت الدنيا ، إلى آخر هذه الكلمات التى تخطر بكل بال وتكاد تجرى على كل لسان ، والتى هى من الشيوع والابتذال بحيث لا تستحق تكريم الارتفاع بها إلى مستوى النظرات فى الحياة .

فهو يقول مثلاً فيما ترجم رامى :

أين النديم السمح؟ أين الصبوح؟ فقد أمض الهم قلبى الجريح
ثلاثة من أحب المنى خمر وأنغام ووجه صبيح

أو يقول :

طبعى ائتناسى بالوجوه الحسان وديدنى شرب عناق الدنان
فاجمع شتات الحظ وانعم بها من قبل أن تطويك كف الزمان

أو يقول :

لا تشغل البال بماضى الزمان ولا بآتى العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاته فليس فى طبع الليالى الأمان

أو يقول :

الخمر فى الكأس خيال ظريف ... وهى بجوف الدن روح لطيف
أبعد ثقيل الظـــل عن مجلسى ... فإنمـــا للخمـــر ظل خفيف !

أو يقول :

مذ أبدع الكون العليم السميع ... لم ير مثل الخمر ، شىء بديع
عجبت للخمـــار ، هل يشترى ... بمالـــه أحســـن ممـــا يبيع

أو يقول :

أنا الذى عشت صريع العقار ... فى مجلس تحييـــه كأس تدار
فعد عن نصحى ، لقد أصبحت ... هذى الطلى كل المنى والخيـــار

إلخ ...

فهل ترى أن معانى هذه الرباعيات ترتفع عن طبقة المواويل والموشحات التى كانت تغنى فى ليالى « الضمم » فى الجيل الماضى ؟ وهل ترى الخيام فيها إلا « ابن بلد » قح من ذلك الطراز الذى عفى عليه العصر الحاضر ؟ وهل ذكر الأيام والفناء والأقدار هنا وفى أمثال هذه الرباعيات يشعرك لفح الحرارة التى نحسها من رباعيات فتزجرالد ، وألم الجنون من عجز الشاعر عن حل الألغاز التى يعالجها وفك المعميات التى يعانيها وكشف الأسرار التى يغوص عليها ؟ والخيام فى رباعيات الصاحبين ، سكير ظريف ، وأنيس حصيف ، وجليس خفيف ، وذكر الموت على لسانه معسول ، لا يفزع والكلام على القضاء والقدر لا تحس أنه يدور على غير اللسان ، ولكن الأمر فى رباعيات فتزجرالد غير ذلك ، والحال على خلافه ، هناك الخمر ملجأ من مخوف الهواجس ومرعب الخواطر ، وحمى من الجنون الذى أحسه وهو يواجه عالم الفناء اللانهائى ، أو « اللاشىء » الذى هو

مآل الاحياء فيما هداه تفكيره ، ولسخره لذعة تحس أنت أنه هو أحسها ، ولعبثه المتكلف كى أليم ، وهو يضعك أمام ما انتهى إليه من الحقائق المرة . ولعل فضل فتزجرالد أنه أضاف إلى الخيام روح الاتزان فتعادلت المرارة والتهكم ، وتكافأ الهم والاستخفاف ونضح على كآبة النفس ماء الورد ، وأطلق إلى جانب الفزع ضحكة ، ليعتدل الميزان ، ونقول بإيجاز ان الخمر فى رباعيات الصاحبين هى الأصل ، ولكنها فى رباعيات فتزجرالد هى النوط الذى يعلق عليه الشاعر آراءه . ولعل الخيام لم يكن كذلك ، ولكنه هكذا أحلى وأشعر ، ولا ذنب للشاعر رامى ولا للأستاذ الصراف ، وإنما الذنب للأصل ، وهما خليقان بالشكر على أمانتهما ، غير أنّا نستأذنهما فى أن نقول إننا نؤثر تصرف فتزجرالد .

* * *

كلا ! ليس الخيام أبيقوريا ولا شبهه ، وعلى أن الناس كثيرًا ما يركبهم الخطأ والوهم فى أمر « أبيقور » أيضًا فلعل هذه المقابلة الوجيزة التى سنجريها بين الرجلين تكشف عن الحقيقة . ويعنينا هنا منها على وجه أخص عقيدتهما ومذهبهما الأخلاقى . لا ينكر أبيقور ما دان لهم الناس فى عصره من الأرباب ، لكنه ينكر تدخل الآلهة ، ويقول إنها لا تحمل على عاتقها عبء هذه الدنيا ، ولا تكلف نفسها حكمها وتسيير أمورها ، وانها (أى الآلهة) ليست إلا ما ينتجه نظام الطبيعة ، أى إنها ليست سوى نوع راق من الإنسانية لا تتحكم فى الإنسان ، ولا هى خلقت الدنيا ولا وكلت بحفظها وتسيير أمورها ، وهذا عند أبيقور لا يستوجب أن يكف الإنسان عن عبادتها غير أن هذه العبادة إن هى إلا إجلال للمثل العليا للنعيم التام ، ولا ينبغى أن لا يكون الباعث عليها لا الأمل ولا الخوف ، والخيام يذهب إلى عكس ذلك ونقيضه ويقول إن القلم

سطر على اللوح كل شيء وان الأقدار صاغت آخر إنسان من أول طينة للأرض وبذرت فى مبدأ الخليقة آخر ما يحصد فى هذه الدنيا ، وكتبت فى أول صبح للوجود ما سوف يقرؤه آخر فجر « للحساب » ولا حيلة لأحد فى تغيير كلمة واحدة مما جرى به القلم .

أبدًا يسطر ما شاء القلم ثم يمضى – نافذ الحكم أصم !
ليس يمحو نصف سطر ، ورع لا ولا يغسله دمع سجم

ويرفض أبيقور نظرية القضاء المحتوم الذى لا مهرب منه ، ويأبى أن يعتنق مذهب القائلين بأن لهذا العالم نظامًا مقدرًا لا يتغير ولا يسع الإنسان إلا امتثاله والاذعان له ، وهو فى هذا يخالف « زينون » الذى يدين بالقضاء والقدر ، ولا يقف أبيقور عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى رفض الاضطرار فى دائرة العمل الإنسانى ، وإلى القول باستقلال البشر عن الآلهة ، واستطاعة الإنسان – كالآلهة – أن يقف بمنجاة من المؤثرات الخارجية ، وأن « يعيش إلهًا بين البشر » .

والخيام يقول بالقضاء والقدر ، ويذهب إلى أن أساس الكون ومحور نظامه هو الاضطرار والجبر ، وان القدر أزلى والقضاء أعمى ، واننا آلات بأكف الأقدار تحركنا كما تشاء أو رخاخ فى رقعة شطرنجها .

وليس لنا من إرادة ولا فى وسعنا أن نستقل أو يكون لنا رأى فى حياتنا . إنما نحن كرة يلعب بنا من ألقانا فى الميدان .

على أنهما اتفقا على شيء وهو أن الإنسان إذا مات فنى وانقضى أمره ، وإنه ليس له حياة غير هذه ، ومن هنا لا يخاف أبيقور أهوال الآخرة ولا يرجو ثوابها .

ويقول الخيام :

عذت بالكأس لعلى بفمى استقى سر الحياة الأعظم
فأسرت شفة الكأس « ارتشف ! ما لميت رجعة من عدم ! »

ولا شك أن مذهب أبيقور مناقض للعلم ، وعلة الخطأ فيه أنه لم يستطع أن يهتدى إلى انتظام الارتباط بين الظواهر الكونية ارتباطًا يجعل كل واحدة منها رهنًا بما عداها ، ولا يجعل فى الوسع أن يفصل المرء احداها عن سائرها وأن يفهمها على حدة .

أما فلسفة أبيقور الأخلاقية فضرب ملطف من الهيدونزم أى القول بأن السعادة هى الخير فى الحياة ، وهى نتيجة منطقية لعقيدته ، بيد أنه لم يدع قط إلى الشهوانية البحتة الصريحة ، وإنما فعل ذلك أتباعه فيما بعد حتى صارت الأبيقورية والشهوانية الاباحية مترادفتين ، وليست اللذة عنده ما يقتنصه المرء من متع الساعة الحاضرة بل هى أقرب أن تكون عادة من عادات الفكر تلازم المرء طول حياته ، وحالة سلبية لا ايجابية ولا فعالة ، أو إذا شئت فقل إنها أشبه السكون والاطمئنان منها بالاستمتاع ، ومحك الاستمتاع عند أبيقور هو زوال كل دواعى الألم وتحرر الجسم منه واستراحة العقل من التعب ، فكأن السعادة عند أبيقور لذة جليلة رزينة — راحة القلب ، وخلو البال ، وانتفاء الآلام الجسمية والعقلية .

وأين من هذا الخيام ، إنه رجل لا يستقر على حال من القلق والتبرم ومن التساؤل والتفكير ، لا البحث يهديه ولا الكأس تسليه ولا الكتاب والرغيف وزق الخمر ، وغير ذلك مما ذكر فى شعره ، بموئتيه راحة النفس وفراغ الفؤاد وانتفاء الآلام . ولقد صار الموت عنده خاطرًا مخامرًا ينغص عليه كل لذة ويكدر له صفو كل نعيم . والفزع من الموت هو أساس

تفكيره والذى تقوم عليه كل نظراته . ومن ذا الذى يقرأ له هذه الصرخة الخارجة من أعماق قلبه ويخطر له بعدها أنه استشعر الراحة لحظة واحدة ؟

ايه أمهلنى بصحراء البيـــود أتذوق ســـر ينبوع الوجـــود !
أفل النجـم – مضى الركب إلى فجر «لا شيء» فعجل يامجود[1]

نعم قد يمزح فى بعض شعره ويتهكم بالعقل ويقول :

يا أخلاى لقد كنتم شهودى حين دار القصف فى عرسى الجديد
طلق العقـــل عقيمًا وغـدت بنت هذا الكرم زوجى وعقيدى

ولكنه تهكم الموجع الذى آلمه أن لا يهتدى إلى شيء وأن لا يحل لغزًا واحدًا ، وسخرية اليائس الذى لا يرى إلا رحى دائرة على الناس بالارداء ، وضحك الساخط على عجزه عن تخليص رجليه من شباك الأقدار وعن لمح بارقة واحدة تجلو له بعض ما خبأه الغد ، ومزح الآسف لاضطراره أن يرتد إلى اليوم الزائل حتى ليتمنى أن يقف على سر نظام هذا الكون ليمزقه ثم يعود فيصبه فى قالب أدنى إلى رغبة قلبه وهوى نفسه !

وعلى طالب السعادة الأبيقورية أن يروض نفسه على توخى الحكمة واستهداء الحزم فى الموازنة بين اللذات والآلام المقدرة وأن يتلمس طريق الاستمتاع وأن يخطو فيه بحذر ، ومن هنا كان الحزم هو رائد السعادة الذى لا يكذب ، وهو لهذا عند أبيقور أسمى الصفات وأساس الفضائل ، بل هو كما يقول « قوة أنفس من الفلسفة » ولابد منه فى التماس الملاذ وفى تمرى نظام للحياة يكون أداة للسعادة . ومع أن الاحساس عنده هو واسطة التمييز بين الخير والشر إلا أنه يخضع للعقل ويدع له الفصل فى قيم اللذات بغية الفوز بهدوء النفس والجسم وراحة العقل .

(١) المجود الظمآن .

والعقل عند الخيام لا يغنى عن الإنسان شيئًا لأنه كفيف أعمى :

صحت- حيران- بأجواز السماء « أى نبراس به يهدى القضاء
صبية تعثر فى هذى الدجى ؟ » فأجابتنى « بمكفوف الذكاء ! »

وأحسب الناس لما عجزوا عن اثبات استهتاكه على كثرة ذكره للخمر ومحاسن التفرد والخلوة بقمره « الذى لا يعرف الأفول » كثرة ليس أدل منها على وحشة صدره وآلامه ، ذهبوا يزعمونه صوفيًا وينفون أن الخمرة التى يذكرها « من عصير الكرم ، وأن ساقيه من اللحم والدم » واستشهدوا بكلام له يقول فيه إنه يعاقر الخمر لعله يرشف من شفتها سر ينبوع الحياة وإنه يلمح بارقة من سنا الحق فى ألحانه يخطئ مثلها فى المعبد المظلم . ولا شبهة فى أن نشأته وكثرة غشيانه مجالس الفقهاء والصوفية ، وتعلقه فى صدر أيامه بالجدل الذى كان فاشيًا فى عصره - كل ذلك مضافًا إلى استعداده الفطرى - ترك فى نفسه أثرًا من التصوف مظهره نزوعه فى شعره إلى البحث فى احساسه الدينى .غير أنه على هذا استطاع أن يخرج سليم العقل موفور الصواب ، وأن يفطن إلى عبث الكلاميات . وقد أشار إلى ذلك فى كثير من رباعياته منها :

خضت فى عهدى غمار الجدل وسمعت الشيخ يتلوه الولى
غير أنى كنت ألفى أبدًا مخرجى ، بعد عنائى ، مدخلى

* * *

كم بذرنا حكمة العقل سواء وتعهدت بكفى النماء
وتأمل : ها حصادى كله : جئت كالماء وأمضى كالهواء !

فهو فى الحقيقة رجل حر الفكر لايزال يحتج فى شعره على تحجر العقول وضيقها وعلى تشدد المتعنتين من أهل عصره ، وعلى شذوذ الصوفية

وهذيانهم . وإذا استعمل شيئًا من عباراتهم فإنما يتخذها أداة للنيل من التصوف الذى ضيع فيه خير شطرى عمره ، والذى لم يستطع أن يعيش مع ذلك بريئًا منه .

غير أنه مع هذا رجل متشائم يؤوس أعياه البحث فنكص وفر من الميدان ولم يشعر أن عليه مهمة فى هذه الحياة ، ورسالة يؤديها إلى أبناء الدنيا . ولو أنه أحس شيئًا من هذا لأغراه ذلك بالبقاء فى الميدان كغيره من المتشائمين الذين يشبههم من بعض الوجوه مثل بيرون وشوبنهور .

كروبوتكين

حياة ضخمة

قل من الناس هنا من يعرف شيئًا – قل أو كثر – عن البرنس كروبوتكين العالم الاشتراكى الروسى الذى جاءت الأنباء بأنه توفى بمدينة موسكو بالغًا من العمر ثمانيًا وسبعين سنة وإن كانت شهرته قد طبقت الخافقين وآثاره قد سارت فى العالمين . على أن خبر وفاته يفتقر إلى التأييد لاسيما بعد أن نفته موسكو . وليست هذه بأول مرة خفقت فيها أسلاك البرق بنعيه فإن صح أنه حى يرزق وأنسأ الله فى أجله حتى يصل إليه تأبينه وما جرت به أقلام الكتاب فى الاشادة بذكره واكبار أمره فليكونن فى ذلك مسلاة له فى آخر أيامه وفكاهة يتعلل بها فيما بقى من عمره . لولا أن مما قد يعكر عليه صفو هذه الفكاهة أن أكثر المادحيه ينظمون له عقود الثناء لا حبًا فيه بل كراهة منه لقرينه لينين !

ولا نحب أن نكون من المتعجلين حتىً فى هذه !! فلندع ترجمته إلى حينها ولنسق من حوادث حياته ومما لقيه من الناس ما له دلالة فى ذاته فقد كانت حافلة بالتجارب المضنية التى ليس أقسى من امتحانها للصبر وعجمها للنفس والجسم جميعًا ولقد ذهب بخير شطريها السجن ، واستبد بالشطر الثانى النفى ، ولكنه مع هذا لم يعرف عنه أنه شكى وتوجع أو بكى وتفجع ، وكان يدهش الناس بمراحه وانبساطه وإيمانه بفوز الحق فى روسيا وسواها آخر الأمر . فهو من النوع الحقيق بالحياة الكفء لأهوالها ومن طراز « بروميثيوس » – وطبد ركين لا يضعضعه عنت الأزمان ولا يزيده

إلا رسوخ إيمان – ومن الطبقة التى تؤثر بمتانة الشخصية وبروزها أكثر مما تؤثر بآثارها العقلية .

والرجل ممن ضحوا بكل شىء فى مصارعته ظلم القيصرية . والروسيون أول من يقدرون له جهاده ويذكرون له بلاءه ويجازونه إحسانًا بإحسان . حتى لينين نفسه – وهو خصمه فى الرأى وعدوه فى المذهب وإن جمعهما الخروج على النظام القديم – نقول حتى لينين نفسه عنى بتوفير أسباب الراحة للرجل فى شيخوخته . روى المستر « ميكين » وكان مراسل الديلى نيوز فى الروسيا منذ عهد قريب أن حكومة السوفيت همت أن تسلب كروبوتكين بقرة له طبقًا لأمرها أن لا يكون لأحد شىء من الماشية إلا الزراع فأمر لينين أن لا يمسها أحد فبقيت له وما كان أنفعها له وأحوجه إليها . ولم يقتصر لينين على ذلك بل رتب له جراية خاصة أكبر مما يسمح به لغيره من الناس ليعينه على استرداد العافية والاحتفاظ بالصحة المتداعية . ولكن كروبوتكين أبى له طبعه المستقل القوى أن يُميَّز عن سواه من جمهور الأمة وقال لا آخذ شيئًا لا سبيل لروسى عادى إليه . وظل فى شيخوخته المريضة يعانى ما يتجشمه السواد الأعظم من أبناء بلاده ، وكان إذا غالبته الهموم آوى إلى مكتبته وتناساها فى أعماله الأدبية . ثم إن ذخيرته من الزيت والشمع نفدت فكان يقضى الساعات الطويلة السوداء فى ليالى الشتاء جالسًا لا يعمل شيئًا ولا يجد حتى من يحدثه .ولما جاء الربيع وتيسر استخدام الكهرباء إلى حد محدود ، سمع بعض العمال بما يقاسيه فى ظلام الليل فحمل سلكًا إلى منزله وجهزه بمصباح . وكان قلما يخرج ، فإذا فعل حياه الناس ولاطفوه وأعربوا له عن اجلالهم له وحبهم إياه بوسائل شتى فيرتبك ويحس بحيرة شديدة ودهشة كبيرة .

ولم يكن كروبوتكين غنيًا وإن كان من بيوت الشرف العريقة فى

الروسيا ولكن بيته فى انجلترا مع ذلك كان يفتح يوم الأحد لكل اللاجئين الهاربين مثله من سطوة الظلم القيصرى . وروى الرواة الثقاة أنه كان قلما يصبح يوم الاثنين وفى بيته شىء يطعم . لأنه كان يشاطر الناس كل شىء . على أنه مع هذا كان يأبى أن يعيش على حساب الغير وكان يستطيع فى بعض الأحوال أن يعود إلى موطنه ويسترد أملاكه ولكنه رفض كل شىء وآلى أن لا يعيش إلا بكده وكسب يده ، حتى إنه لما كان يصدر فى سويسرا صحيفة « الثورة » وثقلت عليه وطأة النفقات ، تعلم صناعة الطباعة وجعل يصف الحروف بيديه ليقتصد ويتمكن من المثابرة . وكان قوى البنية ولكن السجن هده ، وسمع بعض أصدقائه فى انجلترا بأنه أصيب بمرض فى القلب وكانوا يعلمون رقة حاله وتحامله على نفسه وإرهاقها بالعمل فرجوه أن يقصد إلى مكان حسن الجو فى انجلترا أو غيرها وجمعوا له من المعجبين به مبلغًا كبيرًا وطلب إليه أحدهم – شارلس روللى – أن ينزل عنده ضيفًا ليتيسر له إذا شاء أن يتمم كتابه الذى كان قد بدأه فى « التعاون » بعد نشر كتابه فى « التعاون بين الحيوانات » وكان غرضه منه اثبات القانون الطبيعى الذى أشار إليه داروين ، وهو أن التعاون من أكبر العوامل فى البقاء كالتنازع أو التنافس . فلم يستطع كروبوتكين أن يقبل اعانتهم إياه ورد المال كله ولم يسمح لهم حتى باستبقائه لزوجه وابنتهما « ساشا » .

وقد حذق كروبوتكين أكثر لغات أوربا وسأله بعضهم مرة بأيها يفكر ؟ فكان رده أن هذا يتوقف على الموضوع الذى يفكر فيه وانه يفكر بالألمانية أو الفرنسية أو الانجليزية أو الروسية حسب مبلغ بحث أهلها للموضوع .

ومع أنه مقيم فى الروسيا منذ سنة ١٩١٧ فقد انتقد النظام البلشفى الذى يعيش فى ظله بأصرح عبارة وتنبأ للجمهورية الشيوعية القائمة على استبداد حزب واحد بالفشل والاخفاق ولم يزل إلى آخر أيامه – إذا كانت

قد انتهت – متقد النفس وثّابها وإن كان هرم الجسم ولم تضعف مواهبه ومداركه . وسيظل معروفًا فى تاريخ المذاهب الحديثة بأنه مؤسس « الشيوعية الفوضية » . ولا ينبغى أن يخطئ القارئ فيتوهمه من القائلين بالعنف فإنه إنما كان يرمى بدعوته إلى حمل من بيدهم الأمر وسياسة الجماهير على تغيير آرائهم وتطهير قلوبهم . ومن منا – كما يقول – يبلغ من حكمته وطيب نفسه أن يحق له ارغام غيره ؟ ولقد عانى هو وأمثاله من غباء السلطة وضلالها وعمايتها ما زهده فى أساليبها العنيفة وأغراه بوسائل المسالمة . فعنده أن تجديد نظام الاجتماع واصلاحه يستلزم :

أولاً – تحرير المنتج من نير الرأسماليين لكى يتأتى الإنتاج المشترك والتمتع الحر .

ثانيًا – التحرر من نير حكومة موطدة حتى يتيسر للأفراد أن يتحدوا ويصيروا طوائف منتظمة انتظامًا حرًا متدرجًا مترقيًا من حالة البساطة إلى حالة التعقد حسب حاجاتها .

ثالثًا – التحرر من نظام الأخلاق الكنيسى والاعتياض منه الأخلاق الحرة التى تدعو إليها حياة المجتمع نفسه .

ومن رأيه أن احساس التضامن والتماسك خليق أن يعيّن أعمال الناس ويحددها وينبغى أن يترك لكل امرئ حق العمل كما يتراءى لهُ وأن يبطل حق المجتمع فى عقاب الرجل من أجل عمل اجتماعى « إن جمهور الإنسانية – على نسبة التهذيب ومبلغ التحرر من القيود – سيعمل دائمًا بطريقة نافعة للمجتمع » .

وأعظم قانون اجتماعى يدين به كروبوتكين هو قانون « التعاون المتبادل » وقد كتب أشهر مؤلفاته « التعاون » لشرح هذا القانون والدفاع عنه ضد

من ينحو نحو سبنسر .وخلاصته أن قانون التعاون أهم فى نشوء الاجتماع وترقيته من قانون تنازع البقاء .

وظاهر من موجز ما أوردناه من مذهبه أنه نتيجة رد فعل لاغراق النظام القيصرى فى ارهاق الروسيين وتقييدهم بكل أنواع الأغلال وتحميلهم جميع أنواع الظلم والعنت ، وواضح كذلك أن كروبوتكين من الثوريين الكماليين أو الفوضيين السلميين الذين يحلمون بجعل الأرض فردوسًا من طوائف القرى والمدن الحرة المتعاونة وأن يحلوا ذلك محل النظام الاوتوقراطى القيصرى . ولقد راعته ثورات سنة ١٩١٧ وهزته وفتحت عينه على الحقائق الأرضية غير أنه مع هذا كف عن كل معارضة لحكومة السوفيت وإن كان كما أسلفنا قد استنكر منها « مركزة » القوة السياسية والصناعية وأنحى بأعنف العبارات وأمرها على تدابير القمع التى رأت حكومة السوفيت أنها ضرورية للدفاع عن الثورة .

الجمال فى نظر المرأة

اتفق لى فى ليلة من ليالى العيد أن سمعت واحدًا من مشاهير القراء يتلو سورة يوسف عليه السلام بصوت فيه من العمل ومن المجاهدة فى مغالبة فعل الشيخوخة وتعويض ما فاته بتغير روح العصر ، ومن التصابى المرذول ، ما أملنى وصدع رأسى ، وإن كان جمهور الناس من حولى يصرخون طربًا وهو يجاريهم ويقارضهم صياحًا بصياح ، ويكثر لهم مما بدا له أنهم محبوه من النغمات ومؤثروه من التواءات الأصوات . والسرادق كأنه جوف برّكان من فرط الجلبة بعد كل آية حتى تلا هذه الآيات :

﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنهُ ربى أحسن مثواى إنهُ لا يُفلح الظالمون . ولقد همت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنهُ السوءَ والفحشاءَ إنهُ من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدَّت قميصه من دُبر وألفيا سيدها لدى الباب . قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قدّ من دُبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قُدّ من دُبر قال إنهُ من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين . وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًا إنا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينًا وقالت

اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلىَّ مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنهُ هو السميع العليم﴾ .

فكأنى ما كنت قرأت هذا ولا سمعتهُ من قبل ونسيت تنغيص القارئ وثقله ، وذهلت عن ضوضاء الجمهور ، وانطلقت أفكر فى أمر يوسف وما لعله كان لهُ من رواء ساحر وحسن باهر ، وذكرت هذه الصورة الملونة التى تباع لهُ فى الطرقات ويقتنيها العامة وأشباه العامة والتى جعلها رسّاموها ما استطاعوا . وقلت لنفسى إنى أعلم كما يعلم غيرى أن هذه السورة أحب إلى النساء وآثر عندهن من سواها من الكتاب الحكيم . ولكنى مع ذلك وعلى الرغم من المأثور عن جمال يوسف عليه السلام لو كنت مصورًا لخالفت أصحابنا الرسامين الذين أشرت إليهم ولم أجعله كما جعلوه شبيهًا فى حسنه بالمرأة . بل لكنت أتخيل له من معانى الجمال ما أظن أن المرأة بفطرتها أصبى إليه وأكلف به . لا ما ألفنا أن نعجب به نحن معاشر الرجال . وإذ كان هذا يحتاج إلى ايضاح فقد خطر لى أن أقول فيه كلمة أجعلها موضوع هذا الفصل .

يستغرب كثير من الناس رأى المرأة فى الجمال وما يبدو أحيانًا من شذوذها فى ذلك عما ألفه الرجال شذوذًا لا مجال للشك فيه ويحيلون أكثر ما يلاحظونه من هذا على الزيغ فى الفطرة أو السقم فى الذوق أو نقص التهذيب أو غير هذا وذاك مما يرجع إلى نشأة المرأة والأوساط التى عاشت فى ظلها . ولا ريب فى أن لهذا تأثيره إلى حد ما . ولكن هذا

لا يحل المعضلة . وما أسهل أن ننفض الأكف من كل مسألة بأن نحيل على اختلاف الأذواق والفطر صحة وسقمًا . إذن لما بقى شيء يحتاج إلى نظر وتفكير !

ولو أن المرأة كان لها مثل حظ الرجل من القوة والعقل والقدرة على التفكير والتقصي والترتيب لعرفنا من رأيها فى الجمال مثل ما عرفنا من رأى الرجل ولأراحنا ذلك من اجهاد النفس للإلمام بوجهة نظرها التى لم تكشف لنا عنها . ولكن طبيعة الحياة شاءت غير ذلك إلى الآن . وأبت أن تجعل الرجل ، والمرأة سواء . وحسبنا من الفرق ما بينهما من الاختلاف فى تكوين الجسم وما لابد أن ينتج عن هذا التكوين المختلف من الاستعدادات والكفاءات المتنوعة . ومهما قيل عن تساوى المرأة والرجل ، وعلى كثرة ما يلهج به البعض من أنهما لا فرق بينهما وإن الواجب أن يكون للمرأة مثل حقوق الرجل – نقول إن بينهما على الرغم من ذلك وسواه تباينًا جوهريًا . فليس للرجل اثداء تدر اللبن ولا ما يحول الغذاء إلى لبن يرضعهُ الطفل ويتغذى به ، وهو لا يحمل الأجنة فى جوفه ولا فى جوفه مكان معد لذلك . وكفى بهذا اختلافًا كبيرًا يحيلهما مخلوقين ويجعلهما جنسين ونحن لم نأت من وجوه الاختلاف فى التكوين إلا على بعضها وإلا على ما يحتمل المقام ذكره منها . وليس يعجز القارئ أن يتصور النوعين وأن يمضى فى المقابلة إلى نهايتها .

وقد شاءت الطبيعة أن يكون الرجل أكثر تمثيلاً فى حياته للفردية منه للنوعية ، فكتبت عليه – أو على الأصح استوجبت قوته منه – أن يتولى هو مكافحة الطبيعة بما فيها من قوى وكائنات من جنسه وغير جنسه وأن يتكفل بالسعى . والسعى يعرض للأخطار فلا مندوحة له عن الاحتيال لدفعها بالقوة إذا تهيأ لهُ ذلك وبالمكر والتدبير وحسن التصرف وما إلى

ذلك إذا خانته مُنته . ولما لم تكن الحياة لقمة سائغة فقد احتاج إلى مغالبة الصعاب ومعالجة تذليلها . وهو فى كل خطوة يخطوها يصادف ما ينبه غريزة حفظ الذات أو صيانة النفس ، ومن أجل هذا صارت هذه الغريزة أقوى وأنضج وأسرع تنبهًا وأكثر عملاً ، لأن حياته تجعل أعماله متصلة بها أكثر من اتصالها بغريزة حفظ النوع . وهو لذلك أحس بها وأسرع تأثرًا من ناحيتها . ومن هنا كانت الأنانية فى الرجل أظهر وأقوى . والعامة يلاحظون ذلك ويفطنون إليه ويذهبون فيما وضعوه من أمثالهم إلى أن الأم أحنى على طفلها من أبيه . وقد ترى الرجل يداعب طفله برهة أو ساعة ، ولكنك قلّ أن تجد رجلاً يقوى على ما تقوى عليه المرأة من ملازمة الطفل ، والمثابرة على مداعبته ، والصبر على التحدث إليه ، ومن توهم فهم ما لعله يرتسم على صفحة وجهه من الحركات ، أو يند عنه من الأصوات واحتمال ذلك وما هو أشق منه ساعة بعد أخرى ويومًا بعد يوم وشهرًا تلو شهر وحولاً عقب حول .

ولاحظ غير ذلك . أى الاثنين أصلح للتمريض ؟ المرأة بلا نزاع ! ذلك لأن المرض يرد المرء إلى مثل عجز الطفولة وحاجتها وما عسى صبر الرجل على الطفولة وما يضاهيها ؟ والمرأة أقسى من الرجل وأغلظ كبدًا منه على رأى « فيننجر » — وإلا لما احتملت أوجاع المرضى على نحو ما ترى، وفر الرجل منها . أو هى تستغرقها الغريزة النوعية بكل ما تنطوى عليه وتلك حكمة من الله بالغة . ولولا ذلك لما استطاعت المرأة أن تقوم بوظيفتها الجنسية وما ينطوى تحتها من المشاق التى لا قبل للرجل بها . ولا شك أن بقاء النوع رهن بالمرأة على الأكثر وهى فى ذلك مثال التضحية التامة . وحسبك دليلاً ما تتعرض له من أخطار الحمل والوضع . وهى على علمها بهذا الخطر الحيوى وفزعها منه ، واستهوالها له ، لو خيرت لاختارت أن

تستهدف له . وهى فيما عدا ذلك ليس عليها أن تجاهد جهاد الرجل ولا أن تعالج ما يعالجه من الكفاح والتدبير ودرء الأخطار وتذليل المصاعب . ولهذا كانت المرأة أسرع تأثرًا على العموم بكل ما له علاقة بالجنس والأمومة ، لأنها وظيفتها دائرة على محورهما ، وهى لفرط احساسها بالأمومة تحب كل رقيق لطيف – أى ما هو كالأطفال بالقياس إلى الكبار – وتعانقه وتقبله ولو كان جمادًا لا يجيب ولا يحس لا العناق ولا التقبيل ولا يجازى لثمًا بلثم . وإذ كانت الغريزة النوعية فيها أكثر عملاً وأقوى فعلاً فهى أحس بالجمال من الرجل وإن كانت أضيق فهمًا له .

ولكن ما هو الجمال ؟ هو – كما عرفه بعضهم وأصاب – الاحساس بما يهيج فى الذهن مركزَ التوليد من طريق مباشر أو غير مباشر أو بواسطة تسلسل الخواطر . ولما كان بين الرجل والمرأة كل هذا الاختلاف فى التكوين الجثمانى ، وفى الوظيفة التى يؤديها كل منهما فى الحياة ، وفيما يترتب على اختلاف الوظائف من إرباء النضوج فى بعض الغرائز على النضوج فى البعض الآخر ، فمن المعقول أن يؤدى ذلك إلى الاختلاف فى النظر إلى الجمال ، وأن يكون الرجل الجميل فى نظر المرأة هو الذى تتوفر فيه الصفات التى تحس بفطرتها أنها أكفلُ من سواها بحفظ النوع وأعونُ على ذلك – شعرت بهذا أم لم تشعر – وليس من الضرورى حينئذ أن يكون الرجل وسيمًا قسيمًا فى نظر الرجال وأن يُرزق من الملاحة وغضاضة البزة وحسن الرواء ما يطلبه الرجل فى المرأة ويسبيه منها .

هذا هو الأصل والذى درجت عليه الطبيعة . معانى الجمال عند الرجل غير معانيه عند المرأة . ولكن المرأة مع ذلك طرأ على رأيها شىء من التحوير ، وأصاب احساسها مقدارٌ من التنقيح ، واستطاعت على مر الأيام أن تكون قريبة من الرجل من حيث رأيه فى الجمال . وعسى من يسأل ،

وكيف كان هذا وما علته ؟ وجوابنا أن الرجل أقوى من المرأة ومن أجل ذلك وسعهُ أن يوحى إليها ويبثّ فى نفسها رأيه واحساسه شأن الأقوياء مع الضعفاء ، ولا يخفى أن للايحاء أثرًا لا يستهان به فى كل آرائنا وعواطفنا وأعمالنا . وأكثر الناس مدين بعضهم لبعض بسبب هذا الايحاء . والقوى يستطيع أن ينقل آراءه واحساساته ونزعاته إلى الضعيف ، وأن يتغلب على مقاومته ، ويثنى عزمه ، ويُلين من جانبه ، وينسق له ما يختلط فى ذهنه وتضطرب به نفسه على النحو الذى يريده تبعًا لمقدار قوته ومبلغ إربائها على ضعف صاحبه .

ولعل معترضًا يقول : إذا كانت المرأة من الضعف بالقياس إلى الرجل بالمنزلة التى تصفها ، وبحيث يتمكن الرجل من الايحاء إليها ومن قسرها على مشايعته ، فبأى شىء تعلل كون الرجل يعود ألعوبة فى يد المرأة التى يحبها ، ويروح وهو أطوع لها من بنانها ؟ فنقول إنه لا شك فى أن الرجل هو الأقوى وإنه كذلك بطبيعة تكوينه ، وتبعًا لما يزاوله من الكفاح ويألفه من المقاومة والتدبير مما هو ضرورى لحياته . ولا نعنى بالقوة الجسدى منها وإنما نريدها على الاطلاق ، فقد يكون المرء ضعيفًا ويكون مع ذلك أقدر على التدبير والاحتيال وحسن التصرف وعلى تفادى الأخطار ، ويبلغ بدهائه وعقله ما لا يبلغ سواه بمتانة الأسر وتوثق العضلات . وليس بصحيح أن كل رجل تغلبه المرأة التى يحبها على أمره ، ولكن هب هذا هكذا فأى غرابة فيه ؟ وما وجه العجب فى أن تتضاءل قوة الرجل أمام قوة إرادة الحياة التى تسخر المرأة لبقاء النوع وللاحتفاظ بمزايا الجنس ؟ أليست المرأة المحبوبة تجمع فى شخصها كل ما يروق الرجل من المعانى الجنسية ؟ أليست هى أقرب مثال مجسد لما يتصوره خياله من هذه المعانى ؟ فهو – كما قال صديقنا العقاد ونحن نتكلم فى هذا – لا يواجه امرأة بل يقف أمام ممثلة

لجنسها جامعة فى شخصها لكل ما فى هذا الجنس من قوة ولكل ما لغريزة حفظ النوع من سلطان على النفوس .

ولكن هذا الضرب من الاستسلام ضعف على كل حال ، ودليل على نقص الرجولة . نفهمهُ ونعللهُ ولكنا لا نستطيع أن نحترمهُ ، لأن فيه القاء لسلاح الدفاع عن النفس . وليس من الاحتفاظ بالذات وصون النفس فى شىء أن يسلم المرء نفسه إلى مخلوق آخر يبيت رهن اشارته . وإذا كان هذا دليلاً على شىء فهو دليل على أن الغريزة الجنسية قد طغت بغريزة حفظ الذات وغلبتها ، وإن مقدار الأنوثة فى الرجل أربى على مقدار الرجولة فيه فعاد أشبه بالمرأة وإن كان له شكل الرجال .

* * *

ولو كنت مصورًا وبدا لى أن أثبت على اللوح صورة الرجل الجميل فى نظر المرأة ، لآثرت أن أرجع إلى الأصل فى نشوء فكرة الجمال عند المرأة ، وأن أثبت فى وجه الرجل ما يناسب احساس المرأة بالغريزة النوعية ، وما تبحث عنه بفطرتها الذكية من الصفات التى تتطلبها هذه الغريزة . وهذا لا يمنع أن أجعل له نصيبًا من الحسن كما هو ممثل فى خواطر الرجال . بل إن الواجب أن يكون له حظ من ذلك ، لأن الذكور على العموم فى كل حيوان أجمل من الاناث على عكس الشائع عند الناس – أو نحن معاشر الرجال نزعم ذلك ونستخلصه من المقارنات التى نجريها – ولكنى على كل حال ما كنت لأجعل له محيا امرأة كاللواتى نحس أنهن فتنة العين ومنى النفس !

الرجل والمرأة
فى الهيئة الاجتماعية

حول رواية غادة الكاميليا
خلاصة الرواية – بحث فى موضوعها – الممثلون

الكاميليا زهرة نضيرة بيضاء أو حمراء أو شتى الاصباغ ، منبتها الشرق ، ومنه نقلت إلى الغرب : والرواية التى نحن بصددها الآن من تأليف اسكندر دوماس الصغير ، ولعله بها أشهر من الكبير ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن مرجريت التى تدور على حياتها الرواية تحبها ولا تكاد تبدو إلا بها . وهذه أول رواية كبيرة تمثلها فرقة يوسف وهبى على مسرحها وموضوعها غاية فى البساطة وحسن السبك : فتاة من بنات الهوى المترفات اسمها مرجريت (روزا اليوسف) يحبها أرمان (يوسف وهبى) من أبناء الشرفاء ، وتجازيه هى حبًا بحب واخلاصًا باخلاص ، وتغضى عن ضيق ذات يد، بالقياس إلى خطاب ودها من مثل دى فارفيل (استيفان روستى) والكونت دى جيرى (حسن فايق) وتذهب معه إلى ضاحية تقضى معه فيها شطرًا سعيدًا من حياتها التى ينغصها السلال . وكلما احتاجت إلى مال باعت مما تملك من حلى أو خيل أو غير ذلك مما يتعلق به هوى أمثالها من زينات الحياة ومتع الغرور ، وحبيبها جاهل ما تصنع ، حتى إذا علم هم بالتصرف فيما ورث عن أمه وكر إلى باريس لاتمام ذلك تاركًا إياها مع عذراء من صديقاتها هى نيشت (فاطمة رشدى) وخطيبها جستاف (مختار عثمان) وكان والد أرمان (عزيز عيد) يعلم هذه العلاقة الغرامية ويتسخطها ، فذهب إلى مرجريت وصادفها فى فترة غياب أرمان وانتهرها لتوهمه أنها

تخلبه ، فكاشفته بالحقيقة التى كتمتها عن أرمان وأرته عقود بيع أثاثاتها وخيولها وما إلى ذلك فأنس إليها بعد الاستيحاش ، واطمأن إلى اخلاصها وسمو عاطفتها واتخذ ذلك ذريعة قاسية لحملها على التضحية بنفسها وبحبها فى سبيل ابنته التى ارتهن مستقبل زواجها ببت ما بين أرمان ومرجريت من صلة ، فقبلت على مضض ووعدت أن تكتم السر ، وكتبت هى إلى أرمان رسالة قطيعة وعادت إلى باريس حيث عاودت حياتها الأولى ، وإن كان أرمان أبدًا بالذكر والألم المر الفاجع بين العين والقلب . ويلاقيها أرمان على أمل الوقوف على سر القطيعة فتأبى إلا وفاء بعهدها لأبيه ، ورعيًا لوعد الكتمان الذى بذلته وتزعم أنها تحب فارفيل الذى صارت خليلته ، فيهينها على مشهد من صواحبها وأصحابها ، فتصيبها نوبة عصبية ويفدحها ما تحمل من ارهاق التضحية ، وفى كلمة منجاتها لو شاءت ، وتثقل عليها وطأة السل فتلزم الفراش ، وفى هذا الدور يكتب والد أرمان إليه بالحقيقة ، وإلى مرجريت برسالة يعللها بها ، فتتعزى بأخيلة الماضى وما تتوقع من حضور أرمان إليها ، ويأبى القدر أن يوافيها حبيبها إلا فى آخر أيام دنياها ، ويأبى الفن على المؤلف إلا أن يجعل هذا يوم زفاف نيشت ، وإلا أن تدعى مرجريت إلى الكنيسة لشهوده ، وإلا أن تعتذر من التخلف بأنها ستموت قبل تمامه وإلا أن تأتى العروس فى حلة زفافها ومعها بعلها السعيد بها إلى البيت الذى يوشك أن يقوم فيه المأتم . وإن مرجريت لتعلم أنها لا محالة قاضية نحبها فى يومها هذا ، ولكن رؤية حبيبها تنعشها وتشعرها دبيب الحياة التى عادت مطلوبة بعودة حبيبها والتى يغالبها القضاء المحتوم فتفيق ولكن افاقة الموت ، وتستجد قوة ولكن كلسان الشمعة يثب وقد أشرفت على الفناء ثم تهوى جثة هامدة بين ذراعيه .

هذه هى خلاصة الرواية التى وضعها دوماس الصغير فى عام ١٨٥٢ بعد أن صاغها قصة قبل ذلك بأربع سنوات وهى ، كما يرى القارئ ، دفاع عن المرأة زلت بها القدم وأبى المجتمع أن يغتفر لها زلتها ، وأحسب المؤلف أراد أن يقول إنه ما من إنسان يكون كل ما فيه شرًا ، وإنك قد تجد فى

النفوس المنبوذة ، لخروجها عن عرف الجماعة ومألوف أنظمتها ، عناصر من الخير قد تخطئها فيمن يلتزمون هذا العرف والمألوف . وكأنا به أراد أن يقابل بين أثرة والد أرمان واصراره – برغم اجلاله لعاطفة مرجريت واعتقاده فيها الشرف وسمو النفس وعلو الروح – على أن تضحى بنفسها من أجل ابنته ، وبين ما استطاعته مرجريت وحملت نفسها على مكروهه من الايثار والتضحية – نقول كأنا به تعمد هذه المقابلة ليحمل القراء أو السامعين المتفرجين على مشايعتهم إياه على رأيه ومجاراته فى مذهبه ومسايرتهم له إلى غرضه . ولكن ما غرضه ؟ إن كان كل نفس فيها من الخير والشر عناصر ، ولها من الفضيلة والرذيلة حظوظ ، وإن قبح المجتهر قد يكون دونه عفاف سر وحسن مختبر ، فمن ذا الذى يجرؤ على المجادلة بالخلاف فى ذلك ؟ من الذى يحسب أن النفس الإنسانية يمكن أن تكون كلها شرًا محضًا أو خيرًا محضًا ؟ بل من ذا الذى يخطر له أن الشر يوجد صرفًا والخير يتجسد محضًا ؟ بل نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ونتساءل : من من الناس لا يعلم أن الزواج فى صورته الحالية طارئ على المجتمع وإنه لم يكن موجودًا فى العصور الأولى التى مرت بالإنسان – عصور الاستيحاش التى اجتازت دورها الجماعات البشرية قبل أن تنشأ هذه الأنظمة المدنية القاسية المعقدة ؟ نعم الخير والشر صنوان يلزمان معًا ، ولا ينبت كل منهما على حدة . ولا شك أنهما كعود الزهر فيه الوردة المعطار والشوكة الواخزة ، والثابت أن الزواج نظام طارئ حديث وإن كان قديم العهد . ولكن أليس له مظهر يقوم مقامه فى حياة الإنسان الأولى ؟ فى عصور الهمجية الفطرية حين كان كل امرئ مرسلاً على سجيته ، منطلقًا وفق غريزته ، دون ما كابح من عرف منظم أو قانون مشترع ؟ وتسأل قبل ذلك ما هو الزواج ؟ أليس هو طريقة لتنظيم علاقة الرجل بالمرأة وما يترتب على ذلك من النتائج المتعلقة بالنسل ؟ أليست غايته تنظيم علاقة الحب خدمة للنوع ؟ وليس هذا فيما نعلم بالجديد فى تاريخ الإنسانية . فأما الحب ، فهو قوام غريزة حفظ النوع ، وما هو بالطارئ

ولا بالذى بعثت عليه حالة الاجتماع المنظمة الحديثة وهو ينشأ فى حيثما يلتقى إنسانان من جنسين . لأنه الوسيلة التى تتخذها الحياة لبقاء مظهرها الإنسانى ، أو بعبارة أخرى هو الأداة التى تستخدم لحفظ النوع ، والحب من مميزاته – لا بل من لوازمه – الأثرة التى تتطلب الانفراد بالمحبوب وتتقاضاه الوفاء ، وليس الوفاء فى الحقيقة إلا مظهرًا لشهوة الملك والاحتياز ، وهى شهوة عريقة فى الإنسان ، وما أكثر ما يضن المرء بالتافه من الاحراز والأملاك لا اكبارًا له ولا تعلقًا به لنفاسة فيه ، بل كراهة منه لأن يحوزه سواه ؟

وقد يعيينا أن نتصور ما أحسه الإنسان الأول – إن كان قد أحس شيئًا – حين ألفى نفسه فى عالم لا يعلم من أمره شيئًا ولا يفهم من ظواهره لا كثيرًا ولا قليلاً . على أنه لا شك أن الأجيال الإنسانية الأولى اكتنهت معنى ما يحيط بها من ظواهر الطبيعة والحياة شيئًا فشيئًا ، وإن أعينهم كانت تتعقب الدائرة الوضاءة بين طرفى السماء ، وأنهم لاحظوا النار والنور اللذين يأتيان من حيث لا يعلمون وسمعوا جلجلة الرعد وأصداءه فى مخارم الجبال ، وشهدوا اتفاق ذلك وما تحدثه العاصفة من التخريب ، وإن احساساتهم وحاجاتهم كثرت وتضاعفت وتنوعت وألحت عليهم ولجت بهم ، فاندفعوا فى طريق العمل والتفكير ، وساعفتهم الغريزة ، واضطرهم لفح الشمس إلى الاستذراء بالشجر وتوشيج أغصانه وخافوا فعل البرد فاكتسوا جلود الحيوان ، ولما لم تكفهم الغيران والكهوف الطبيعية ، ولا وفت بحاجاتهم ، صنعوا لأنفسهم ملاجئ فى أحضان الجبال ، والتمسوا النور وبغوا النار وشحذوا الحجارة ليتخذوا منها أداة أو سلاحًا – وفقوا إلى ذلك وسواه على مر الأيام ، وبالتدريج ، لا طفرة واحدة . ولكنهم لم يتعلموا الحب بالتدريج ، ولا عرفوا ما يثيره من الأثرة وطلب الانفراد

دون سائر المخلوقات بسببه وباعثه على كر الحقب . بل لقنتهم الغريزة ذلك مذ وجدوا على ظهر الأرض كما أودعت غيرهم من المخلوقات ما يشبه ذلك وركبت طبائعها على الذود عن صغارها .

فآباؤنا الأولون كانوا يحتازون مثلما نحن نتزوج ، ويأبون إلا الاستئثار كما نأباه ، ويطلبون الوفاء الذى نطلبه ، ويغارون غيرتنا ويدافعون عمن استأثروا بهن من النساء دفاعنا عن زوجاتنا ، وليس من فرق على الحقيقة سوى هذا العقد الذى يكتب ويسجل وتنظم به علاقة الزوجية وما ينشأ عنها من النسل والميراث .

وعسى من يقول : ولكن الإنسان لا يأبى المشاركة فى الطعام فما باله يأباها فى الحب ؟ فنقول ليس الغرض من الطعام ما عسى أن يجده الآكل من اللذاذة المستفادة من نكهته ومذاقه ، بل ما يؤدى إليه من الصحة ويكسب المرء من القوة التى يستعين بها على أداء مهمته فى الحياة . وليس له بعد ذلك غاية ولا ثم غرض آخر غير المساعدة على حفظ الذات . والقليل منه يكفى حتى إذا توفر الكثير ، وقد تتغلب عاطفة التعاون على التنازع . ولعل المشاركة فى الطعام أشحذ أحيانًا للشهوة ، وأعون على إصابة القدر اللازم منه ، وفى هذا ما يغرى بها ، ويجعلها مرغوبة ومطلوبة ، فالأنس المستفاد من اجتماع الأوداء ، والغبطة التى يحدثها ذلك ، وتنبيه المعدة وشحذها بهذه الطريقة ، من العوامل المعقولة فى جعل المشاركة محبوبة أحيانًا ، ولكن الإنسان مع ذلك أخلص لطبعه من أن يرضى هذه المشاركة فى كل حال . ولنفرض مثلاً أن الطعام قل أو حدث قحط لسبب من الأسباب وطغى الجوع بالناس . أتظن حينئذ أن المرء تطيب له هذه المشاركة ؟ ألا يخطف المرء ويستأثر بما تصل إليه يده ؟ ألا يقتل فى سبيل اشباع بطنه ؟ نعم قد تكون النفوس أقوى من الجوع فيتغلب التعاطف

على سورة السغب وجنونه ، ولكنا إنما نتكلم عن أوساط الناس لا القليلين النادرين من الشواذ الذين تسمو بهم نفوسهم وتحلق فوق جماهير الخلق . ثم لماذا نرى الجود مما يمدح به الناس بصفة خاصة ؟ قد لا يكون الجود مما يدور عليه الثناء فى العصور الحديثة . ولكن الأدب القديم حافل به . فلماذا خطر لهؤلاء الناس أن يميزوا ممدوحهم بالجود إذا كان ذلك عامًا طبيعيًا ؟ لم كان حاتم الطائى مثلاً خالد الذكر لأنه كان ينحر نياقه أو خيله لضيوفه ؟ ولسنا نعنى حاتمًا على وجه التخصيص وإنما نتخذه رمزًا لأمثاله وأندادهم من أجواد العالم المذكورين . ليس الأصل فى الإنسان الكرم ولا الايثار ولا شيئًا مما يجرى هذا المجرى ، وإنما الأصل فيه أن يعمل وفق غريزتيه الكبريين : غريزة حفظ الذات وغريزة حفظ النوع . فإذا كانت المشاركة أعون على ذلك فبها وإلا فلا شىء إلا الأثرة والأنانية فى أقسى مظاهرهما .

وإذا كانت المشاركة فى الطعام معقولة أحيانًا لما تعين عليه من شحذ المعدة وتفيده من الأنس والغبطة فليس مما يتصوره العقل أن يكون من شأنها أن تعين على الغاية من الحب وهى حفظ النوع . ولا هى يمكن أن تفضى ، فيما تفضى إليه ، إلى الايناس وشرح الصدر وغبطة القلب ، وحسن العاطفة فى تبادلها وفيما يحسه المرء من صداها فى غير صدره وتجاوب قلب آخر بها . والحب كما أسلفنا يثير شهوة الملك فى نفسى المتحابين واستئثار كل منهما بالآخر ، هذه طبيعة العاطفة التى نحن بصددها . وكذلك كانت، مظاهرها قديمًا وكذلك هى الآن وغدًا وفى كل أوان . فماذا يريد دوماس ؟ وأى شىء يبغى أن يقول فى روايته ؟ أن لا ننقم من البغى شيئًا ؟ وأن نجلها وننزلها منزلة المحصنات اللواتى يأبين أن يجعلن أنفسهن كالشمس لكل الناس ؟ إن الفضائل لم توجد فى الدنيا عبثًا . وإذا كان الملل فى

طبيعة النفس البشرية ، وطلب التحول والتنقل كالنحلة بين زهرات الحياة معقولاً فإن ذلك لا يسوّغ البغاء ولا ينفى ضرورة العفة .

أم نفعل ذلك رحمة منا بالضعيفات اللواتى يهوين إلى هذا الدرك ولا يستطعن أن يقاومن المغريات أو يجتنبن حبائل الرجال ؟ حسن أن نكون رحماء وأن نغتفر الزلات ولكن لمن ؟ لمن يستحق ذلك ، لا لمن تريد أن تعيش عيالاً على المجتمع وحميلة على الخلق وأن تجرر أذيال الغنى وتقضى أيامها فى ظل البذخ والترف بغير حق وعلى حساب الشريفات المحصنات — وإذا كان هؤلاء لا يطقن أن يغالبن المؤثرات وأن يفزن على المغريات فهن ضعيفات قد يدرك الفردَ العطفُ عليهن ولكن الحياة لا ترحم ولا ترثى لأحد وليس فى الطبيعة محل للضعيف .

وقد يكون هوى أرمان فى هذه الرواية مما يعجب الشبان ويروق ضعاف النفوس والاغرار ، ولكنه ليس فيه شىء مما يعجب الرجولة ويقع من قلب الفحل ذى القوة — هذا لا يفهم كيف يذيب الحبُ النفسَ ويحيلها كالقميص البالى الذى لا يصلح لشىء أو الورقة المبلولة ، ويقعدها عن أداء مهمتها فى الحياة والنهوض بفرائضها ، ولا يترك لها من عمل سوى البكاء والعويل أى التخنث المرذول .

* * *

هذه كلمة لم نر بدًا من قولها عن رواية دوماس التى شقت له طريق الشهرة . فلسنا ممن يوافقونه على فكرته التى بثها فيها ، وأنشأها لأجلها ، ولا ممن يحمدون هذا النوع من الحب الذى يذوى النفس ، ويعصف بالرجولة ، وينسى المرء فرائض الحياة . وقد كان تمثيلها بديعًا وأداء الذين قاموا بأدوارها جيدًا . وجاء حسن التمثيل مسعدًا لموضوع الرواية حتى اغرورقت مآق كثيرة !! والسيدة روزا اليوسف حقيقة بأعطر الثناء على

جودة تمثيلها على الرغم من أن دورها فادح طويل مرهق ، ولقد بلغت فى الفصل الثالث الغاية التى ليس وراءها مطمح وذلك حين يتوسل إليها والد أرمان أن تضحى بنفسها وتبذل حبها فداء لابنته ، وهى جالسة سابحة فى عباب طاغ من العواطف الجائشة المتعارضة ، وبين يديها زهرة الكاميليا تنثر غلائلها ولا تعى ما تفعل . ولم نر أعظم ولا أبهر من قدرتها فى هذا الفصل عينه حين يعود حبيبها وتغالب دمعها المترقرق وتعالج أن تبتسم وتضحك وفى صدرها الفائر جحيم من الألم تصارعه . ولو أنها أضافت شيئًا من السعال فى الفصل الأخير إلى تمثيلها الذى لا يبارى وقطّعت كلامها لما وجدنا مأخذًا ما .

وأجاد يوسف وهبى أداء دوره وعرف كيف يجعل حركاته طبيعية ملائمة لمواقفه ، وأعجبنا منه على وجه الخصوص اقتداره على تمثيل الزراية والاحتقار وجعل نظرته وهيئة جسمه فى وقفته أصدق ناطق بذلك ، وحبكه دور الحائر الذى لا يفطن إلى ما انتوت حبيبته من مهاجرته .

والآنسة فاطمة رشدى ماذا نقول عنها ؟ كيف تمثل غرارة الصبى وسذاجة النفس واطمئنان القلب إلى حب الحبيب وفرحه بقربه إلا كما فعلت ؟ إن هذه الفتاة آية ولا يخالجنا شك فى أن مستقبلها سيكون أبهر وأروع . ذلك أن لها ، كالسيدة روزا ، قدرة عظيمة على تقمص الدور وتشرب روحه بحيث تصدر عنها كل كلمة أو حركة وكأن الأمر واقع والمسألة حقيقة . ومن مزاياها الواضحة التى تدل على استعدادها للتمثيل أنها تنسى الجمهور كأنه غير موجود ، وهذا هو الواجب ، فإن على الممثل أن يتفرغ لدوره وأن لا يفرض أن هناك أحدًا ينظر إليه ، على عكس الخطيب الذى لا يسعه إلا أن يعنى بجمهور السامعية وإلا أن يلاحظ التيار بينهم ليتمكن من توجيهه وجهته التى يريدها هو .

ونحب أن ننبه الأستاذ عزيز عيد إلى وجوب التمكن من استظهار دوره ، فإن عدم الحفظ يضطر الممثل إلى جعل باله إلى الملقن ، فيصرفه ذلك عن تجويد دوره ، ويحمله على ملء الفترات بين الجمل أو أبعاضها ، بحركات قد لا يكون لها محل ، أو تكون كثرتها وتواليها بلا مبرر سوى نسيان الكلام ، من بواعث الضعف فى التمثيل ، ولم نكن لننبه إلى ذلك لولا إعجابنا بقدرته ، واعترافنا بمواهبه ، ورغبتنا فى تنزيهها عن هذا العيب الصغير الذى لا تستعصى مداواته .

وقد أطلنا فليقنع الباقون من زملائهم بالشكر منا لهم على ما أجادوا وأحسنوا .